ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

استراتيجيات السخرية في فضح الخطابات الزائفة في الرواية العربية المعاصرة

-قراءة من منظور النقد الثقافي في سردية بابا سارتر لعلي بدر-

Strategies of irony in exposing false rhetoric in the contemporary Arabic narrative - Read from the perspective of cultural criticism in the narrative of Baba Sartre to Ali Bader -

د. بوحناش عائشة[1]*،

[1] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة(الجزائر)، a.bouhannache@univ-dbkm.dz

تاريخ الإستلام: 2024/12/21 تاريخ القبول: 2025/04/19

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى محاولة توضيح الطريقة والرؤية التي تستطيع عن طريقها السخرية تفكيك الخطابات المزيّفة ضمن السرد الروائي، كما تعد أيضا محاولة لمناقشة وتجاوز مفهوم السخرية كاستخدام قديم والحديث عنها بوصفها استراتيجية بديلة يمكن عبرها تمرير الخطابات وتصحيح الزائف منها، وقد جاءت رواية علي بدر "بابا سارتر" نموذجا بيننا من خلاله كيف يمكن لخطاب السخرية فضح المثقف المزيف الذي أصبح منتشرا اليوم في الأوساط الثقافية العربية بكثرة، وقد اعتمدت هذه الورقة على استراتيجيات النقد الثقافي وذلك من أجل تقديم قراءة ورؤية ثقافية للمتن السردي في رواية علي بدر.

الكلمات المفتاحية: السخرية، المثقف المزيف، المثقف الهاوي، الوجودية،

***

Abstract:

This paper seeks to try to clarify the way and the vision by which it can ridiculously dismantle fake rhetoric within the narrative. It is also an attempt to discuss and move beyond the notion of irony as an old use to an alternative strategy through which communications can be passed on and phony corrected. Ali Bader novel "Baba Sartre" is a model of how a cynical speech can expose the fake intellectual who has become pervasive in Arab cultural circles. This paper relied on cultural criticism strategies to provide a cultural reading in Ali Bader narrative.

Keywords: *Irony, fake intellectual, amateur intellectual, existential,.*

* المؤلف المرسل

تقديم اشكالي

مما لاشك فيه أن المقاربات النقدية اليوم تتعامل مع النصوص السردية انطلاقا من رؤى فكرية بالدرجة الأولى، فالرواية لم تعد تنحصر قيمتها في المتعة فقط بل أصبحت هي أيضا **تفكر**، إنها السبيل اليوم للحفاظ على الذاكرة وإعادة تسريدها كما تعد أيضا الوسيلة الوحيدة اليوم التي تسعى إلى تصحيح التاريخ والخطابات الزائفة التي نسجها المسيطر/الآخر حول نفسه/ذاته فقد أضحت سلاحا مهما في تعرية الخطابات التي تقوم على ازدواجية المعايير-العنصرية والكراهية والتمييز العرقي- وغيرها من الأشكال النمطية التي أصبحت الرواية المعاصرة تخوض فيها تماشيا مع المقاربات النقدية الجديدة التي تروم إلى إعادة تشكيل رؤى العالم وفق فلسفة تتجاوز التمركز حول الذات أو حول الأنا فهي تسعى إلى فضح التشكلات التي انبنت عليها المجتمعات وإعادة التفكير في العلاقات وأنماط العيش المختلفة في وقتنا الحاضر وذلك انطلاقا من خلخلة الفكر المترسب في الذهن البشري.

ومن أجل أن يكون الأدب عموما والرواية خصوصا باعتبارها أكثر الأجناس الأدبية تأثيرا وتفوقا، أكثر فعالية وتأثيرا، كان لابد من هذا الأدب أن يغيّر من أسلوب الخطاب ووسائل الخطاب حسب تغير المتلقي وذهنيته، ويعد الأدب الساخر أحد أهم وأبرز الوسائل التي لها تأثير كبير منذ القدم على المتلقي وأيضا أداة لتمرير القيّم والرسائل الأخلاقية التي يحاول السارد وضعها في مكانها الطبيعي، وأيضا وسيلة تهذيب إذا ما صح القول، فالخطاب الساخر غالبا ما يكون له تأثيره الفاعل خاصة على الإنسان المعاصر الذي أصبح يتخبط في أسلوب حياة مليء بالتفاهة التي تقودها مواقع التواصل الاجتماعي فقد أصبحت تستسهلك كثقافة نتج منها نوع من البلادة والاستغباء في التعامل مع الخطابات الإعلامية التي تحمل نوعا من الخداع والغرابة والتفاهة «فقد تخلت الثقافة عن مكانتها لثقافات، وأي ادعاء بالسلطة المعرفية أو المكانة الخاصة بات يعامل بازدراء, لم يعد التمييز التقليدي بين الثقافة العليا والثقافة الدنيا يعني الكثير في بيئة أصبحت الحقيقة فيها تتمته بخاصية المخادعة» (فرويدي، 2010،ص16). فتجده يصدق كل ما يمرر عبر **"نظام التفاهة"** في استعارتنا لهذا المصطلح من المفكر "آلان دونو" وينساق وراء ما يُمرر من مغالطات تاريخية، إعلامية، سياسية في قالب من السخرية التي أصبحت أكثر وصولا وتأثيرا على الأفراد عبر مختلف الوسائط. وقد لاحظنا مؤخرا استعمال أسلوب السخرية في إدارة جلسات إعلامية حول القضية الفلسطينية من قبل مجموعة من الإعلاميين على رأسهم **باسم يوسف** في حواره مع المذيع **بيرس مورجان** التي حققت ملايين المشاهدات في دقائق فقط ضمن ما تدعى **بالكوميديا السوداء** وهي تقريبا نفس الكوميديا التي يكتب بها الأديب أدبه، «إنها الكوميديا التي تعمل كعميل للتحسن الاجتماعي عبر إصلاح سوء الحظ، وحل المنازعات ومنع الخطيئة ومكافأة الفضيلة» (إيغلتون، 2019، ص ص55-56)، فأسلوب السخرية في إطار ما تسمى **بالكوميديا السوداء** لا نجدها في المجال الإعلامي فحسب بل نجدها في الثقافة والأدب والسياسة والرسم وحتى الموسيقى وغيرها من الفنون التي تحاول تغيير وقائع بعض الأشياء المنمّطة في أذهاننا بحس فكاهي «فالفكاهة خير مرآة تنعكس عليها أحوال كل مجتمع وما مرّ به من أحداث، وما اكتسب من مقوّمات، وما اندمج في خلقه من سمات» (خريوش، د.ت،ص6).

إن السخرية ليست وليدة اليوم بل هي كما يقول عبد الحكيم محمد حسين «قديمة قدم الإنسان، لأنها قد تكون ترويحا عن النفس أو تسرية عن القلب، أو استنكارا لما يقع، أو هزءا و تندرا بالخصم» (حسين، 1988، ص64) فهي تعبر عن طبيعة الإنسان الميّال إلى الشيء المضحك الفكاهي والذي يخلق عنده نوعا من مشاعر إراحة النفس وإسعادها، «حين يضحك المرء فهو منخرط في الواقع» (إيغلتون، 2019، ص57) ونحن هنا نتحدث بطبيعة الحال عن السخرية الإيجابية التي تنقد لتبني، وليس السخرية السلبية المبطّنة للتفاهة الهدّامة لمشاعر النفس الإنسانية والتي لا تتماشى وقيمنا الإنسانية والأخلاقية.

لهذا أظن أن الكتابة الساخرة أو الأدب الساخر وإن كان هذا الأسلوب في الكتابة موجود منذ القدم في مختلف الفنون وفي الأدب قد عرفناه بفنيته العميقة الجمالية المغمور بالحكمة والفلسفة والتهكم والدعابة عند العرب ونوادرهم وبخاصة في أدب الجاحظ الذي خصّ له كتب ورسائل والذي «سخر من كل تصرف غريب، ومن كل قول عجيب، وهزئ من كل من تجاوز حده، وخالف مجتمعه، طمعا في رده إلى نصابه، وإرجاعه إلى قرابه، أو رغبة في التسلية والمرح، والترويح عن النفس، (...) لقد تناول بسخرياته شتى الموضوعات، وتنوع الخصال، وغريب الأوضاع» (حسين، 1988، ص62). إلا أن استخدام مفهومه اليوم يختلف حسب اختلاف الغرض منه وحسب اختلاف نوعية المتلقي، فنحن أمام تغيُر نوعية الخطاب وأمام تغيُر بعض المفاهيم وتغير في الفهم عند الجماهير المتلقية، وبالتالي هناك مما لاشك فيه تغيير في الوسائل والوسائط والخطابات حسب تغير المعطيات. فلم يعد أسلوب السخرية عند النقاد هو ميزان لجمالية وفنية النصوص بقدر ما هو قدرة الكاتب على نقد الواقع وتخليصه من سطحيته وتفاهاته.

ولأن الرواية اليوم أصبحت فضاء منفتحا يحاور كل الأفكار المطروحة في حياتنا اليومية وفي معتقداتنا وغيرها، نجد بعض الكُتّاب المعاصرين يلجؤون إلى الكتابة بأساليبهم الساخرة أو إلى تضمين الخطابات الساخرة الهازئة حول بعض الموضوعات التي تحتاج إلى تساؤلات وتحتاج إلى إعادة تصحيح الزائف منها في ذهن القارئ بالدرجة الأولى. ففي الأخير يبقى الكاتب جزء لا يتجزأ من مجتمعه أو المحيط السياقي الذي يتواجد ضمنه على الأقل لأجل تغيير الوعي العام للأفراد بواسطة بعض الأساليب الذكية الساخرة التهكمية النقدية التي لا يتمكن منها سوى الحامل لهموم مجتمعه والعارف بمأزق مشكلاته الأخلاقية والقيمية بالدرجة الأولى. فالأدب الساخر «يقوم على المهارة في الالماع والذكاء وحضور البديهة» (خريوش، د.ت، ص62).

يعد الروائي العراقي علي بدر أحد أبرز الكتاب الأذكياء الذين يكتبون بما يتماشى من الطروحات الفكرية المعاصرة ونظرياتها الفلسفية ورؤى العالم ووعي الفرد فيه، حيث تعتبر روايته **"بابا سارتر"** من بين أهم رواياته التي كتبها والتي لجأ فيها إلى أسلوب نقدي ذكي ساخر في نقد **"المثقف المزيف"** العدو الأول للمثقف كما يسميه **"جان بول سارتر"** في كتابه **"دفاعا عن المثقفين"**. فالرؤى السردية التي يكتب بها علي بدر في الغالب تكون مبنية على رؤى فلسفية فكرية إذا ما عدنا لروايته **"مصابيح أورشليم"** في توظيفه لشخصية إدوارد سعيد وفكر جاك دريدا وغيرهم، مثلما نجد رواية بابا سارتر التي تستلهم رؤيتها الفلسفية من الفكر الفلسفي والوجودي لجون بول سارتر، فالروائي المعاصر أصبح يبني أفكار سرديته على نظريات واتجاهات نقدية وفلسفية مما يجعل الرواية ليست مجرد سردية جمالية فحسب.

ركّز علي بدر في سرديته هذه على الدور المخاذع للمثقف داخل المجتمعات العربية والذي تصنعه غالبا الكتابات الإعلامية التي تهتم بكتابة السير الذاتية لهؤلاء المثقفين الزائفين حيث أضحت حسب علي بدر الكتابة بمثابة طلاسم يقتات منها التجّار والكاتب إنّها وسيلة لتحقيق الربح السريع، ولأن الكتابة الساخرة هدفها الأول ليست إضحاك جمهور المتلقي أو القارئ وترفيهه وإنما كما سبق وقلنا هو وسيلة لتمرير خطاب مضمر عبر خطاب السخرية يحاوره ويناقضه يهدمه ويعيد بناءه من منظور فلسفة جاك دريدا، بالرغم من أن المتلقي اليوم يركز على التلقي المرئي الترفيهي أكثر من القراءة أو الكتاب في حد ذاته.

فالسخرية في الفنون التمثيلية المسرحية أو الدرامية وحتى الأدبية إنما هي فكاهة تخاطب العقل وتحاول إيقاظ الوعي فالسخرية «ترقى بالفكاهة إلى المستوى الأكثر ذكاء ولباقة، فتجعل لها معنى، وتعطيها قدرة خاصة على أن يكون لها هدف، وأن تخدم هذا الهدف، وأن تحتال لتحقيقه، وأن تكون لها إمكانية التأثير وهي لذلك تتخذ مادتها من العيوب والنقائص التي لا تطيق لها وجودا،(...) وتحاول السخرية أن تتخلص من الانفعال في الظاهر، فتبدو كأنها لا تنبعث عن

عاطفة ما عند قائلها لأنها تخاطب العقل، وتسعى إلى أن يكون الجو حولها مشبعا بالإدراك والوعي» (الهوال، 1982، ص ص18-19).

يمكننا القول انطلاقا من هذا التعريف أن السخرية سواء كانت في الأدب أو الدراما أو التمثيل هدفها الأساسي هو تهذيب وتصحيح عيوب المجتمع وتربية النفوس البشرية والرقي بها بعيدا عن السلبيات والعيوب التي يرفضها المجتمع، كما أنها وسيلة غير عدائية بطابعها الذي يبعث عن الفكاهة والضحك لتسليط الضوء على الأشياء المظلمة في عمق مجتمعاتنا والتنبيه لخطورتها والرغبة الملحة في التخلص منها، ولهذا فهي سلاح آمن وفعّال لمخاطبة عقل الإنسان وتحقيق الوعي الإيجابي لديه والهدف هو إحداث التغيير في الوعي الجماعي للمجتمع الواحد، كما تستخدم السخرية في فضح الرقابة وتعرية الظلم والاستغلال الذي تمارسه الأنظمة السياسية فالذي «تتمتع به السخرية من جدية فكهة يعطيها إمكانية السرعة في النفاذ إلى العقول والتأثر بها، ويتيح لها الوقت الكافي لتنتشر، وتتصل بالرأي العام، وبأفكار الجماهير، وتصبح من المكونات الأساسية للوعي القومي،(...)تعمل بذكاء لتحويل الشيء أو المنظر الذي ترصده إلى صورة دميمة، لتسقطه في النهاية من عالم المثل ومن حسابات الجمال الذي قد يكون في كثير من الأحيان واقعا تحت وهم الاتصاف بها، فيبدو مثيرا للضحك» (الهوال، 1982 ، ص ص 37-38).

لقد اعتمدت هذه الورقة البحثية على استراتيجيات ومقاربات النقد الثقافي لأن الرواية اليوم تحتاج إلى مثل هذه المقاربات التي تتعامل معها باعتبارها نص ثقافي بامتياز من أجل تفكيك أنساقها والوصول بالنص وخطابه إلى الخطاب الذي يناقضه من الداخل، فمن غير المعقول أن نتعامل مع السرديات المعاصرة بالمناهج الحداثية التي تحيلنا دون النص الثقافي أو أصواته المتعارضة فالرواية اليوم هي التي تفرض مقارباتها وليس العكس.

ومن أجل تحقيق الهدف المرجو من هذه الورقة البحثية تم اتباع خطة منهجية نوضحها كالآتي:

"تقديم إشكالي" تناولنا فيه طرح مفاهيمي حول الرواية المعاصرة وتغيير أسلوب الكتابة من خلال استخدام الكوميديا السوداء أو التمثيل والكتابة الساخرة من أجل تمرير القيّم والفكر الإيديولوجي وتصحيح بعض المعتقدات والسلبيات وتهذيبها كما توقفنا عند مفهوم السخرية والإشكالات التي تثيرها رواية بابا سارتر محل الدراسة لنوضح منهج الورقة البحثية وتقسيماتها التي ستسير وفقها.

وقد قسمنا هذه الورقة إلى قسمين الأول بعنوان **" الخطاب الساخر في مواجهة أوهام المثقفين وأزمة الثقافة العربية"**، أما القسم الثاني فكان بعنوان **"المثقف وهوس كتابة السيرة الذاتية المزيفة"**، حيث ناقش هذا القسم هوس المثقف العربي بكتابة سيرته الذاتية والتي غالبا ما يكون فيها اهتمام بجانب الحياة في مرحلة الطفولة بصورة مثالية لا تعكس الوقائع المعرفية وهو الأمر الذي حاول علي بدر تعريته باستخدامه لخطاب السخرية كوسيلة تفكيكية نقدية عبر السرد .

أولا: الخطاب الساخر في مواجهة أوهام المثقفين وأزمة الثقافة العربية:

بأسلوب ساخر وتهكمي يجعل المتلقي يتخبط بين مشاعر الألم ومشاعر الضحك في الآن ذاته على واقع الكتابة الزائفة في الثقافة العربية عند دخلاء الكتابة يقترب علي بدر عبر سرديته التي وسمها بـ **"بابا سارتر"** نسبة للمفكر الوجودي الفرنسي جان بول سارتر، إلى عمق المجتمعات العربية وهو مجتمعه العراقي، ليسلّط ضوء كتابته على الحياة الثقافية الزائفة وعلى الكيفية التي يصنع بها المثقف الزائف أو الفيلسوف العظيم الذي لا يعرف عظمته سوى أصحاب المقاهي الشعبية والحانات والخمّارات الليلية بما تحمله من متسكعيها وكي يستطيع المزيّفون في أوساط الثقافة إقناع جماهير القراء «يلجؤون إلى حجج، هم أنفسهم لا يصدقونها. قد يؤمنون بقضية لكنهم يعمدون إلى وسائل غير شريفة

للدفاع عنها(...) يصنعون عملة ثقافية مزورة من أجل ضمان انتصارهم في سوق المعتقدات الراسخة.» (بونيفاس، 2013، ص6)

يختار علي بدر **"ضمير الأنا السادرة"** لسرد أحداث روايته **"بابا سارتر"** التي تعرّي الفساد الأخلاقي لشخصيات تحاول أن تجعل من الكتابة وسيلة تجارية غير شريفة فضلا عن كونها طريقا لدخول عالم الشهرة والفلسفة. حيث لا يجب أن يأبه الكاتب بما يكتبه من أكاذيب ومغالطات وحقائق مادام المقابل لهذا هو المقابل المادي وهنا نتساءل عن الكيفية التي يمكننا من خلالها حسم الجدال القائم بين الفكرتين القائلة: بأن" "المثقفين يعيشون من أجل الأفكار ولا يعيشون منها أو فكرة إيرمان بأنه يمكن «للمثقفين أن يعيشوا من أفكارهم، لكن ينبغي أن يعيشوا من أجلها أيضا» (فرويدي، 2010، ص47). فالقضية ليست قضية حسم الجدال والرأي الصائب بقدر ما تمكننا الفكرتين من إعادة موضعة المثقف الحقيقي الذي يؤمن ويعيش لأجل أفكاره ودورها في المجتمع والمثقف المزيف الذي يحاول اغتصاب مجتمعه من خلال الكسب المادي عبر تزييفه للحقائق وتسريدها فيما يخدم طريقه نحو الكسب أمثال الروائي **"بوعلام صنصال"** والكثير أمثاله الذين حصدوا جوائز أدبية وثقافية بسبب انعدام النزاهة والانتصار للحقائق التاريخية وتغييب دورهم في إبراز مواقفهم من القضايا العادلة كالقضية الفلسطينية وقضايا الاستعمار انطلاقا من مواقعهم الفرنكوفونية التي يكتبون منها، ومن هنا يمكننا حسم هذا الصراع القائم بين الفكرتين باعتبار المثقف الذي يعيش من أفكاره لكنه لا يعيش لأجل أفكاره وهو نموذج المثقف المزيف المغتصب لتاريخ مجتمعه، فحدث تغييب دور المثقف الأكاديمي المنتج للمعرفة أو المثقف الهاوي بمفهوم إدوارد سعيد المنتصر للحقائق الفكرية أمام أي سلطة والمدافع عن هويته وهوية انتماء جماعته وتاريخها. بل تحولت المعرفة إلى منتَج نفعي براغماتي في سوق الثقافة والمثقفين دون وجود لرسالة معرفية أو جهد معرفي للانتصار للحقيقة التاريخية أو السياسية وهو الدور السلبي المؤسف الذي وصل إليه بعض **"مثقفي الجوائز"** خاصة حول القضية الفلسطينية التي تغيّرت بتغير مفاهيمي مقصود فتحول الاحتلال الغاصب إلى صراع بين شعبين. وأصبحت مفهوم المقاومة إرهاب، وأصبح الاستعمار والاحتلال له الأحقية في الدفاع عن نفسه على أرض ليس أرضه كل هذه المفاهيم تغيّرت عندما غيّب صوت المثقف الحقيقي وتم تلميع صورة المثقف المرتزق عبر الجوائز الأدبية العالمية.

لقد تحول دور المثقف أو المفكر في المجتمع إلى وظيفة يتم الاستعانة بها لتعزيز مؤسسات السلطة وتوجهها ورقابتها وشهرتها انطلاقا من تعريف "أنطونيو غرامشي" للمثقف، (سعيد، 2008،ص33)فما يحدث إذن هو ممارسة هذه الوظيفة من قبل المثقف المزيّف فينتج لنا حينئذ تعتيم للحقائق ونزاهة خطاباتها.

يلقب **"باسكال بونيفاس"** في كتابه المثقفون المزيفون هذه الطبقة "بالمرتزقة" ويرى أنهم أسوء نوع من أنواع المثقفين المزيفين لأنهم لا يملكون مبادئ أو فكر يؤمنون به سوى الإيمان بأنفسهم وكل القضايا التي يزعمون الانتماء لها والدفاع عنها إنما بالضرورة لهم فيها مصالحهم الخاصة تحت "سبيل الغاية تبرر الوسيلة" وهي المقولة التي تجمع كل من المثقف المرتزق والمثقف المزيف فكليهما على وعي بالخيانة للأمانة الفكرية أو انعدام النزاهة الفكرية في قول الحقيقة (بونيفاس، 2013، ص5).

تمثل شخصية **"عبد الرحمان"** في الرواية "أو ما يطلق عليه أفراد مجتمعه "فيلسوف الصدرية "سارتر العرب"، نموذجا للمثقف المزيف الفارغ الذي يصنع في فضاء المقاهي والخمّارات وأرصفة الطريق، فهو الفيلسوف الوجودي الذي لا يفهم معنى انتماءه الفكري الجديد (الوجودية) الذي لم يكتب كتابا واحدا في حياته ولم يقرأ كتابا واحدا لكنه يعرف عناوين بعض الكتب التي كتبها سارتر ومعرفته ببعض عناوين الكتب كافية لتجعل منه شخصية فلسفية تبهر الناس، وكافية لأجل كتابة سيرته الذاتية العظيمة من أجل الدخول من الأبواب الواسعة إلى التاريخ المأساوي للعالم على حد

تعبير علي بدر في قالب من السخرية المحملة بالجد والتهكم «ومثل هذا النقد الأدبي الساخر، كان يبث حتى في الدقيق من المواضيع الخطيرة، للإيمان بأهميته في بلوغ الأدب، بعيدا عن كل إملال فيه سرد تسأمه النفوس، فصور الفكاهة ومنابعها كثيرة فهم يضحكون للازدراء أو للسخرية والهزل أو للانتصار والعطف.» (خريوش، د.ت، ص12)

لقد أصبح "عبد الرحمان" فيلسوف الصدرية الوجودي" في العراق مشهورا يتداول الناس اسمه لأنه سافر إلى فرنسا من أجل دراسة الفلسفة ثم عاد إلى العراق دون أن يتحصل على الشهادة، ولكن زواجه من نادلة فرنسية كان بمثابة زواجه من الفلسفة والفكر الوجودي مما يؤهله لأن يكون فيلسوفا مقبولا عند العرب فهو يرى أن هذه النادلة ما دامت أنها فرنسية من موطن "جون بول سارتر فهي ابنة خالته لا محالة حسب أوهامه" «ولئن فشل عبد الرحمان في دراسته الفلسفية هذه وعاد بلا شهادة الدكتوراه في الفلسفة الوجودية الفرنسية، إنما عاد بزوجة شقراء فرنسية كعادة العراقيين الذين يذهبون إلى بلاد العلم لينهلوا من العلم، ولكنهم بعد سنوات يتركون العلم لأهل العلم، والشهادة لبلادها، ويحضرون بدلا عنها امرأة شقراء جميلة (فإن لم يكن بالعلم فبمصاهرة أهل العلم، على الأقل(...)عبد الرحمان ما كان ليأتي بزوجته الفرنسية (...) بل إنه جاء بها لأنها كانت وهذا الأمر لا يدركه إلا القليلون -مواطنة سارتر لو لم تكن جرمين مواطنة سارتر ما كان أن يتزوجها» (بدر، 2001، ص ص38-39).

استطاع علي بدر بخطاب الهزء والسخرية اللاذعة وعبر شخصية "عبد الرحمان الملقب **بسارتر العرب** داخل السرد، تفكيك عقدة العربي المفتون بصورة المرأة الأوروبية، العقدة التي لم يستطيع هذا الأخير التخلص منها، لم تكن أوروبا أمام "عبد الرحمان" وغيره من شخصيات عربية مهاجرة في فرنسا -وإن تعددت أسباب الهجرة- سوى ملاذ للجنس والشهوة وتحرير للكبت والحرمان الجنسي، كان ممارسة الجنس مع امرأة أوروبية من قبل العربي بمثابة انتقام للذكورة الشرقية من المستعمر وهو انتقام وهمي يتلبس بنفسية هذا العربي المضطرب بين الافتنان والرغبة في ملاحقة الشعر الأشقر والعيون الزرقاء والجسد الأبيض وبين ضغينة الانتقام الوهمية في ذهنه، كما أورده علي بدر على لسان شخصية سي معمر«الاستعمار يعيش على دم الشعوب التي يستعبدها، أنا أرفضه، أنا لا أضع نفسي تحت تصرفه، أنا لا أساهم في الحياة على الإطلاق إنما جئت هنا لأعيش على نساء المستعمر. لذلك أنا مرتاح هم يركبون رجالنا هناك، ونحن نركب نساءهم هنا» (بدر، 2001، ص129)، أما الزواج من المرأة الشقراء فهو الامتياز الكبير الذي قد يحصله أي مهاجر عربي إلى أوروبا، وهي الورقة التي تمنحه الاحترام والهيبة والمكانة الاجتماعية من قبل أفراد مجتمعه إذا ما استطاع العودة إلى وطنه العربي ومعه المرأة الأوروبية الشقراء. وهو ما يجسد لنا صورة المجتمع العربي المهزوم أمام هذا الآخر المتفوق على حد زعمه، فعبد الرحمان الذي صار يلقب بسارتر العرب كان كافيا له استنشاق الهواء الفرنسي كي يصبح وجودي الفكر متأثرا بوجودية سارتر التي اشتهرت في خمسينيات القرن الماضي واعتنقها جيل الستينات الذي رفض الدخول في معركة الكتابة الفلسفية وفضل الكلام في الشأن الفلسفي في الغرب لأن المثقف المزيف لا يكتب وإنما يتكلم عندما كان من الممكن التأسيس لفلسفة نقدية خاصة بنا.

يوجه علي بدر وعبر لسان السارد أيضا نقدا لاذعا يحمل سخرية وتهكمية من جيل الستينيات والمزاعم الفلسفية التي بنى عليها أوهامه، أوهام التأثر بفلسفة الغرب وفي طليعتها فلسفة سارتر الوجودية وهم الفلسفة الوجودية التي لم تكن في ذهن المثقف العربي في تلك الفترة سوى العيش بعبثية وحرية هذه العبثية أو الفلسفة الوجودية لم تكن تعني في ذهن المثقف العربي سوى ممارسة الجنس وشرب الخمر والتردد على المقاهي والحانات والشعور بالعدمية والغثيان من كل شيء في الحياة. متأثرين في ذلك بكتاب **الغثيان** لسارتر «مثلما كان عبد الرحمان غير قادر على الكتابة بالفرنسية، كان غير قادر على الكتابة باللغة العربية أيضا، مثلما كان غير قادر على التفكير بصورة منتظمة (...)إنما كانت ثقافته شفاهية، كانت ثقافة تستند إلى الكلام لا إلى الكتابة، كما كانت ثقافة أغلب جيله وهي: الجلوس في المقاهي والتحدث بصورة لا نهائية على طق الديمينو وشجير النارجيلة صباحا، الرقود في السينمات متراخين على الكراسي

الخلفية عصرا، وفي المساء السكر والعربدة في الملاهي والبارات والأماكن العامة. الكتب لا تقرأ منها إلا عناوينها، ولا يعرف أحد منها إلا العروض المبسترة في الصحف والمجلات الأدبية.» (بدر، 2001، ص44)

بهذا الخطاب الساخر الهزلي الأليم والمضحك في الآن ذاته، يجعلنا علي بدر نقف عند أزمة حقيقية يعاني منها المثقفين العرب/أزمة المثقف العربي، أو الأمراض التي تعانيها ثقافتنا العربية، فشخصية عبد الرحمان السردية هي في حقيقة الأمر شخصية موجودة في واقع مجتمعاتنا العربية بل هي شخصية موجودة داخل المؤسسات التعليمية ولنقل داخل الجامعة اليوم، وإن اختلفت الطريقة فالنتائج واحدة، حيث نجد بعض المثقفين يتفاخرون بتأثرهم وتبنيهم لفكر ونظريات غربية رغم عدم اطلاعهم وقراءتهم لهذا الفكر سواء كان نتيجة ضعفهم في اللغة الفرنسية والتي لا تؤهلهم إلا لإقامة حوار يومي عامي، ولا تؤهلهم أيضا للقراءة والاطلاع على الفكر الفلسفي الفرنسي، بل جل ما يفهمونه هو الاكتفاء بمعرفة اسم النظريات وأسماء مؤسسيها وعناوين الكتب وأسماء مؤلفيها من خلال بعض المقالات القليلة التي ترجمت في الصحف والمجلات وهي مقالات في غالبها تشوّه هذه النظريات وتخون مفاهيمها وذلك بسبب الترجمة غير الدقيقة لكثير من المفاهيم والمصطلحات، وفي اعتقادهم معرفة هذه الأمور يكون في غالب الأحيان كافيا لأجل تبني فكر نظرية أو مناهج معرفية وهو الأمر الذي أنتج لنا دكتور أو مثقف متأثر بالماركسية، وأخر متأثر بالبنيوية وآخر يصرح بأنه تفكيكي وآخر حداثي...الخ وتغير هذا التأثر والتبني مرهون بالتغير الذي يطرأ على هذا الفكر في الغرب فالحداثي يصبح في وقت لاحق ما بعد حداثي وكل جيل سيعتنق الفكر الذي ازدهر في الغرب في عصره مثلما اعتنق جيل الستينيات الوجودية، بالرغم من أنه لم يكتب ولو كتابا واحدا في هذا الفكر طيلة حياته لا بلغته الأم وباللغة الأجنبية لأن فلسفته تقوم على الكلام لا على الكتابة ومن هنا نتج لنا أيضا ما نسميه بمثقف المقاهي المتأثر بوجودية سارتر وعبثية ألبير كامو وماركسية ماركس وغيرهم، فبقي العرب يحاولون على مر العصور فهم ودراسة الفكر الغربي وشرحه ثم الاختلاف عليه، دون التأسيس لفكر ومناهج ونظريات تنطلق من إيديولوجية خاصة بهم نستطيع من خلالها قراءة واقعنا ومعالجة مشكلاته وتغييره، فنجد المناهج والنظريات النسقية التي سقطت في الغرب وتم تجاوزها منذ قرن لازالت محل اهتمام كبير عندنا.

ثانيا: المثقف وهوس كتابة السيرة الذاتية المزيّفة:

يفتح علي بدر سلاح لغته الساخرة في سرديته "بابا سارتر" على موضوع السيرة الذاتية باعتبارها هوس الكتاب وتجار الكتابة، حيث يجعلنا نتعرف على شخصيات سرديته من خلال السيرة لذاتية التي يطلب من السارد كتابتها بمقابل مادي حول فيلسوف الوجودية العربية أو سارتر العرب والتي تمثلت في شخصية عبد الرحمان وشخصيات أخرى مثل شخصية عباس فلسفة وسي معمر وغيرهم. فبلغة ساخرة أضاء لنا علي بدر زوايا حياة هذا المثقف العربي الذي أصابته حمى الوجودية وفلسفة الغثيان والعبث، أصبح يعيش وهم الشخصية الفلسفية الفكرية المهمة في المجتمع العربي، والذي أصبح سارتر الحقيقي وجودي فرنسا يعتمد على ملاحظاته «...كنت أتحدث مع صديقي سارتر عن بعض الاختلافات الجوهرية والتعديلات التي أقترحها عليه ليكتبها في فلسفته...وكان سارتر يوافقني كلمة كلمة، وحرفا حرفا...وكان يوافق كل ما كنت أقول له» (بدر، 2001، ص98)

لم تكن حياة عبد الرحمان كمثقف أو كشخصية فلسفية سوى مجرد تخيلات وهمية رسمها حول نفسه ساردا إياها في المقاهي والخمّارات التي كان يحجز له مقعده فيها باسم **"الفيلسوف الوجودي"**، بالرغم من أن الجميع كان يشكك فيما يقوله على الأقل بينهم وبين أنفسهم لا يصدقون ما يقوله، وعلى الرغم من أن الجميع كان يعرف مدى ضعف المستوى المعرفي لهذا الفيلسوف إلا أن الجميع يعطيه احتراما لا مثيل له والجميع منبهر بعظمته وكانوا دائما يحاولون مجالسته وسماع أحاديثه الفلسفية التي لم تكن مفهومة لهم لأن الفلسفة في نظرهم لا يمكن فهمها فالمتلقي لم

يكن سوى جلاس المقاهي أو مطربات الملاهي، وعودة عبد الرحمان من فرنسا من أرض الوجودية كان كافيا ليصبح في نظر هؤلاء فيلسوف وجودي يستحق الاحترام.

عندما نقرأ هده السردية التي أمامنا ونقاربها حواريا يكتشف الناقد لا محالة أنه أمام ثلاث أصوات متناقضة من الداخل لكنها نسجت لنا سردية واحدة، فالخطاب الأول/ الصوت الأول الذي نكتشفه خلف هذه السردية هي أن هذه الشخصية لم تصنع نفسها بنفسها وإنما صنعها جهل المجتمع الذي لا يقرأ، صنعها هذا المجتمع الذي يعاني أزمة الثقافة والفكر فيستطيع أي دخيل على الفلسفة والفكر والثقافة أن يتلاعب بذهنية هذه المجتمعات ويجعلها تصدق وهميته، أما الخطاب الثاني خطاب السخرية الذي كتب به علي بدر فهو يكتب عبر السارد بطريقة جدية في قالب هزلي، خطاب جاد يحمل خطاب هزلي يجعل القارئ يدرك في ذاته عمق هذه الأزمة وخطورتها على فكرنا العربي، أما الخطاب الثالث فيجعلنا نكتشف تناقض هذه الشخصيات وازدواجيتها في هذه المجتمعات التي يعرّيها من داخلها، حيث يكتشف القارئ أن هذه الشخصية التي تتحرك في هذا المجتمع العربي كشخصية مرموقة مثقفة فلسفية لا تؤمن بذاتها من الداخل هي شخصية ضعيفة أمام نفسها تعاني عقدة الطفولة المنحرفة والتنشئة الاجتماعية المضطربة، فعبد الرحمان لم يكن من الداخل سوى شخصية تعاني عقدة الخجل وعقدة الجنس التي نشأت معه منذ طفولته وظلت تلاحقه كما جاء على لسان السارد «إن المصدر الأساسي لفلسفته يكمن في طفولته. لقد كان وجوديا منذ كان طفلا وإن مظاهر الغثيان كانت متجذرة في روحه منذ حادثة تلصصه على حجرة والديه.» (بدر، 2001، ص144)

لم يجد السارد الذي كُلّف بكتابة سيرة فيلسوف الصدرية سبيلا لتعرية اضطرابات هذه الشخصية الضعيفة التي تجسّدت في شخصية عبد الرحمان، سوى تسليط الضوء على طفولته التي جعلتنا نفهم عقدة العربي مع الجنس واضطرابه المرضي والذي تشكل بسبب العلاقة الجنسية بين الأب والأم أو تلك الأصوات الصادرة من غرفتهم والتي كانت في أذن أو عيون ذلك الطفل المتلصص عليهم ليلا، وهو الأمر الذي يدفع به لاحقا إلى البحث عن المكانة الاجتماعية التي تجعل منه شخصية ذات أهمية أو قيمة في المجتمع لتكون الفلسفة سبيلا للظفر بمثل هذه المكانة الوهمية، أو وسيلة للهروب من الاضطراب النفسي الذي يعانيه بسبب طفولته المعقدة المضطربة.

تعمد علي بدر وذلك عن طريق سارده الاهتمام بالجوانب المظلمة للتنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة المرحلة الأساسية للتربية الجنسية التي عاشها "عبد الرحمان فيلسوف الصدرية"، محاولا بذلك تفسير ذلك الخجل والكبت الجنسي والعنف الذكري الذي يعاني منه هذا العربي اتجاه هذا الجسد/الأنثوي الذي كان يريده -كما جاء على لسان السارد_ بكل الطرق «بالاستمناء، بالاغتصاب، بالخيانة، بالتجريح، وأي ثمن.» (بدر، 2001، ص112)

إن القضية الساخرة الأخرى التي يثيرها علي بدر هي هوس المثقف العربي بكتابة سيرته الذاتية التي لا ترتكز على الحقائق والوقائع الصحيحة، حيث نجد اليوم أغلب المثقفين العرب لجأوا إلى كتابة سيرتهم الذاتية قبل كتابة أي كتاب أو تقديم أي إضافة فكرية جديدة خلال سيرته العلمية، غير أن علي بدر عبر السارد حاول أن يفضح هذه السيّر التي في الغالب تكتب بمثالية كبيرة، تحمل حقائق زائفة وفي الغالب ما يتم تجاوز تفاصيل الطفولة المضطربة التي يتشارك فيها أغلبية أفراد مجتمعاتنا العربية. والتي أراد علي بدر عبر سارده كتابة سيرة هذا المثقف العربي على حقيقتها بعيدا عن المثالية المفرطة ليضعنا أما سخرية كبيرة من حياة هذا المثقف العربي المستعصي عن الفهم.

خاتمة:

تعد رواية بابا سارتر من بين أبرز السرديات المعاصرة التي استلهمت الكتابة الساخرة من أجل تسليط الضوء على أزمة المثقف وتمثلاته في مجتمعنا العربي. إذ يعتبر الخطاب الساخر أحد أبرز الوسائل التأثيرية التي تجعل القارئ ينفذ إلى المشكلات التي يثيرها الكاتب، حيث غالبا ما تضع الكتابة الساخرة المتلقي في مواجهة ذاته ومواجهة الآخر

بطريقة هزلية تبعث على الفكاهة والضحك ولكنها تبعث في الآن ذاته على الحزن والألم من هذا الواقع المؤلم الذي نعيشه.

إن الخطاب الساخر ليس وسيلة بيد الأديب فقط بل أصبحت وسيلة سياسية أيضا لأجل تسليط الضوء على أكثر القضايا العادلة في العالم لما له من تأثير فعّال في تغيير موازين لصالح الرأي العام، واللجوء لهذا النوع من الخطاب يحتاج إلى بديهة وذكاء من أجل إحداث التغيير في المشكلات المراد معالجتها.

الإحالات والمراجع:

[1]- فرانك فرويدي: أين ذهب المثقفين، تر: نايف الياسين، العبيكان للنشر، المملكة العربية السعودية، ط1، 2010.

[2] - تيري إيغلتون: فلسفة الفكاهة، تر: ماجد حامد، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2019.

[3]- حسين خريوش: الفكاهة في أدب الأندلسي، منشورات جامعة اليرموك، الأردن، د.ت.

[4]- عبد الحكيم محمد حسين: السخرية في أدب الجاحظ، الجماهرية للنشر، ط1، 1988.

[5]- حامد عبدة الهوال: السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة، 1982.

[6]_ باسكال بونيفاس: المثقفون المزيفون "النصر الإعلاني لخبراء الكذب"، تر: روز مخلوف،ورد للطباعة والنشر، ط1، 2013 .

[7]- إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، رؤية، 2008.

[8]- علي بدر: بابا سارتر، دار المتوسط، إيطاليا،ط1، 2001.